المولدي الأحمر*
Mouldi Lahmar**

المتخيل والمخيالي والرمزي

L’imaginaire, l’imaginé et le symbolique

الكتاب	:	المتخيل والمخيالي والرمزي
العنوان الأصلي	:	*L’imaginaire,l’ imaginé et le Symbolique*
الكاتب	:	موريس غودلييه Maurice Godelier
الناشر	:	CNRS Editions
تاريخ النشر	:	٢٠١٥
عدد الصفحات	:	٢٨٦

صدر في آخر السنة الماضية كتاب جديد للأنثروبولوجي الفرنسي الشهير موريس غودلييه حول موضوع غير مطروق في الأبحاث الأكاديمية العربية، ويحمل عنوانًا ربما ليست ترجمته موفقة، وهو «المتخيل والمخيالي والرمزي». وسبب كونه غير مطروق هو أنه إبستيمولوجي ـ أنثروبولوجي بامتياز، والمكتبة العربية فقيرة جدًا في هذا المجال. وترجمة عنوانه كما مضمونه تثير الكثير من المصاعب، لأن الرمزي والمتخيل والمخيالي، وكذلك أغلب المفردات الأخرى التي تنتمي إلى الحقل الدلالي الذي تحيل إليه هذه الكلمات، لم تحظ بعدُ في الأدبيات العربية بالتفكيك والتدقيق والتعريف، وهو ما يسهل ترجمة أعمال تغوص في ثنايا هذه الموضوعات بحِرفية عالية، وبخلفية كثيفة من المعارف الفلسفية والسيكولوجية والسوسيو ـ أنثروبولوجية، كالعمل الذي أنجزه غودلييه.

يقسم غودلييه كتابه إلى ثمانية فصول تدور رحى الفكر فيها على تحليل العلاقات الكثيفة والدينامية، الواعية واللاواعية، بين خمسة مفاهيم: الوعي والفكر والمتخيل والمخيالي والرموز. والغاية التي يجري إليها التحليل والجهد هي الإجابة عن السؤال التالي: ما الواقع؟ وغني عن الشرح هنا القيمة الإبستيمولوجية الاستراتيجية للإجابة عن هذا السؤال؛ إذ إن الجميع في العلوم الطبيعية والاجتماعية يفترض أنه يدرس «الواقع».

* أستاذ علم الاجتماع والأنثروبولوجيا في معهد الدوحة للدراسات العليا.
** Professor of Sociology and Anthropology at the Doha Institute for Graduate Studies.

سنكتفي في هذا العرض المقتضب، والذي يهدف فقط إلى فتح شهية القراءة عند المشتغلين بالعلوم الإنسانية ريثما نعود إلى هذا العمل بشكل أكثر تفصيلًا في مناسبة أخرى، بإعطاء لمحة عن خط السير الذي قطعه غودلييه ليصل في النهاية إلى الجواب عن سؤاله الرئيسي: ما الواقع؟

لمّا كان الرهان الاستراتيجي للسؤال ضخمًا، رغم الحجم والعدد المتوسطين للصفحات التي خصصها للإجابة عنه، فإن غودلييه لم يصل إلى مرحلة الغوص في الموضوع إلا بعد أن أعد لذلك العدة: بتمهيد عام، ثم بتعريف لمعالم الطريق، ثم بتحديد خصائص أساسية للكائن البشري تحدد «طبيعته» في جميع العصور والأماكن. وخص كل فكرة من هذه الأفكار بفقرة منفصلة، لافتًا النظر إلى أن من دون ذلك قد تختلط الأمور على الجميع.

السؤال الذي ينطلق منه غودلييه ربما يصعب تمثله في اللغة العربية بدقة، للسبب الذي ذكرته في البداية. وعلى كل حال، يمكن التعبير عنه كالتالي: كل ما هو متخيل ليس مخياليًا، وبما أن ما هو متخيل هو وليد الفكر، فإنه ينبغي أن نحلل كيف ولماذا ينتج الفكر في بعض المجالات مُتخيلًا مخياليًا، ولماذا ينتج في بعض المجالات الأخرى متخيلًا ليس كذلك. والمشكلة الحقيقية ليست هنا، لأن هناك، بحسب المؤلف، أنواعًا عدة من المخايل (هنا يتداخل معنى التخيل بمعنى المخيال الذي هو منظومة كاملة من التصورات، مثل السحر أو المعتقد)، وكل واحد منها لنا علاقة مختلفة به. هناك بعض منها نعرف أنه متخيل، كأن يعرف الطفل مثلًا أن الأرنب القماشي الذي بين يديه ليس أرنبًا حقيقيًا، ومع ذلك يتعامل معه في حدود اللعب على أنه كذلك، وهنا يفرد غودلييه فقرات مهمة من كتابه عن العلاقة بين اللعب والمتخيل. ومنها ما هو مخيالي، كالمعتقدات الدينية، ولكن التعامل معه يجري على أساس أنه واقع أقوى من الواقع نفسه، أو هو واقع فوق الواقع، يثبت واقعيته عبر أشياء لها وجود واقعي مثل الكنائس والمساجد وكل ما يشير إلى وجود الآلهة كيفما كانت والعالم الماورائي المتخيل بصفة عامة.

هنا يلاحظ غودلييه أن ما يشهد بحقيقة المخيالي هو واقع الرموز التي تحيل إليه، ملاحظًا في الوقت ذاته أننا نتحرك هنا في مجال المعتقد الذي يؤدي فيه الرمزي دوره الأقصى، وهو ما يزيد السؤال تعقيدًا: إذا كان الرمز يعبّر عن واقعية مخيال غير واقعي، فكيف يمكن الفصل بين الرمزي والمخيالي؟ هل الرموز أكثر واقعية مما ترمز إليه؟ وإذن ما الرمزي؟ وهل يساعدنا هذا الأخير على الفصل بين المخيالي والواقعي؟

على امتداد الصفحات الـ٢٤٥ التي حُبّرت من أجل العثور على جواب لسؤال ما الواقع، بكل ما يختبئ وراء السؤال من قضايا إبستيمولوجية تتعلق بموضوع المعرفة في حد ذاته، ظل غودلييه يشتغل على معادلات الفكر والوعي والمتخيل والمخيالي والرمزي والواقعي، شارحًا كيف أن جميع هذه المعادلات تتأسس على أرضية «الطبيعة الإنسانية» التي يُعرّفها بأنها «مركب بيولوجي اجتماعي ثقافي لا ينفصم أبدًا، يتحدد كل عنصر من عناصره بعلاقته بالعنصرين الآخرين» (ص ٢٨). وعلى أساس هذه الطبيعة ينهض نشاط الإنسان الذي يفترض الوعي

بالوجود الخاص، وبوجود الآخرين المتفاعلين معه، وبالعالم المحيط بالجميع. وبما أن الوعي بالذات هو تفكير، فإن التفكير يتجاوز مجال الوعي؛ إذ إن جزءًا من عمليات التفكير لا واعية، وإن التفكير لا يمكنه أبدًا أن يستوعب نشأته الخاصة في كل واحد من الناس، تلك النشأة التي لها علاقة وطيدة بالمخيالي. ومن هنا جاءت صعوبة عملية الفصل بين المتخيل والمخيالي والرمزي والواقع.

في الأخير يصل غودلييه إلى الجواب التالي عن سؤال ما الوقع؟ وعلى القارئ أن يحدد الاستخلاصات الإبستيمولوجية التي يمكنه أن يحتفظ بها من هذا الجواب، ويقدّر خطورتها النظرية والمنهجية: «من كل ما تقدم يمكننا أن نستنتج أن «الواقع» الذي نعيشه وليد وحدة لا انفصام فيها بين مكونات مادية وفكرية (معرفية يمكن التأكد من صحتها أو مخيالية خالصة) تدخل في عملية إنتاج العلاقات بين البشر وبينهم وبين الطبيعة على مستويات عدة. لذلك، فإنه لا يمكننا أن نقابل بشكل ميكانيكي بين الواقع والمخيالي أو الرمزي، وهذا لسببين على الأقل: **الأول** هو أن كل ما هو مُفكر فيه أو مصنوع أو هو موضوع لفعل البشر لا يمكن التفكير فيه من دون حامل رمزي. وبذلك، فإن الرمزي يوجد في كل ما يُفكر فيه أو يُنتجه أو يفعله البشر. **والثاني** هو أن جزءًا كبيرًا من الواقع الاجتماعي هو مخيالي، **تحول**[1] إلى علاقات اجتماعية ومادية ذات وجود واقعي؛ مخيال يختفي كمخيال لأنه لم يصبح واقعًا ماديًا واجتماعيًا فحسب، بل لأنه في الأساس يبرز كوجه من وجوه الواقع الذي نعتقد بوجوده وإن يكن غير مرئي، بالنظر إلى أنه يحمل معنى الوجود ومكانة الإنسانية فيه. باختصار هذا الواقع فوق الواقع، والذي هو أساس كل شيء، هو الذي يهرع نحوه اللاهوتيون والفلاسفة، ولكن يهرع إليه أيضًا العرافون والعرافات وآخرون مبجلون في النفاذ إلى ما هو لا مرئي» (ص ٢٣٧ـ ٢٣٨).

في النهاية، ووفاء لتوجهه الماركسي النقدي، ينهي غودلييه كتابه بعودة إلى ماركس الشاب في نقده الشهير لفيورباخ. ويورد المؤلف كلامًا لماركس لاحظ فيه أنه إذا كان هدفه الفلسفي هو رد الدين إلى أساسه المادي بعد أن فصلته عنه البشرية، فإن هذا لا ينهي المشكلة، لأن الأهم في ما يجب فعله ما زال ينتظر الإنجاز، من دون أن يفصح ماركس عما ينبغي فعله في هذا الشأن. وما ينبغي إنجازه بحسب غودلييه هو مساعدة البشرية على التوقف عن إنتاج عوالم لا توجد كي تنتج عوالم يمكنها أن تواصل العيش فيها، وهذا منحى فكري وأخلاقي تحرري قديم في التفكير الماركسي، ربما يتناقض مع التعريف الذي قدّمه غودلييه لمفهوم «الواقع».

الهامش

(١) التشديد من المؤلف.

صدر حديثًا

يحيى بولحية

البعثات التعليمية في اليابان والمغرب

من أربعينيات القرن التاسع عشر حتى أربعينيات القرن العشرين
تباين المقدّمات واختلاف النتائج

يُعالج هذا الكتاب، من خلال المقارنة بين مجتمعي اليابان والمغرب، إشكالية تنموية لافتة، لماذا هناك بعض المجتمعات ينمو ويزدهر ويتقدّم في الإصلاح، ومجتمعات أخرى، تخضع للآليات التنموية نفسها، تبقى تراوح مكانها، فإذا كان كل من المغرب واليابان قد واجها تحديات خارجية متشابهة (1844 – 1853) دفعتهما، ظاهريًا، إلى إرسال بعثات تعليمية إلى دول الغرب الرأسمالي لتوظيف نتائجها في عملية الإصلاح الداخلي والتنمية، لماذا نجحت المحاولة اليابانية وفشلت مثيلتها المغربية؟ هل هذا نتيجة البنية المجتمعية المختلفة في المجتمعين، أم نتيجة البنية الذهنية ودور المدرسة والأنموذج التعليمي في كلا البلدين؟

للتحقق من ذلك، وضع المؤلف مسألة هذه البعثات التعليمية، باعتبارها آلية تحديثية، في إطارها التاريخي العام من النواحي الإدارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والتعليمية، بتحليل طبيعة النظام السياسي في كلا البلدين، وتعرضهما للهجمة الغربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والبحث في خصوصيات البناء الاجتماعي والثقافي والرمزي والأسطوري، واستنتاج لحظات القوة والضعف في البنية التربوية والتعليمية في المغرب واليابان، وذلك من خلال وثائق مغربية ويابانية. محاولًا تأكيد قيمة التراكم في منح الفاعلية والنجاعة لرؤى التنمية المختلفة.

تقارير المؤتمرات العلمية

محمد الإدريسي

تقرير عن الندوة الدولية حول «الدين والتدين: بين العلوم الإسلامية والعلوم الاجتماعية» 233

كمال طيرشي

تقرير حول المؤتمر السنوي الخامس للعلوم الإنسانية والاجتماعية: «المدينة العربية: تحديات التمدين في مجتمعات متحولة» 241

من أعمال الفنان العراقي كاظم نوير

A painting by the Iraqi artist Kadhim Nuir